

تعريف «جودة» التعليم



لمعرفة حجم المشكلة في النظام التعليمي في البلاد العربية نأخذ مثالين من نتائج الاختبارات الدولية بيزا (PISA) لعام 2022 للمقارنة:

يحتاج الطالب الذي عمره 15 سنة في دولة الإمارات العربية، وهي الأفضل في الدول العربية المشاركة، إلى 26 شهرا (نحو سنتين دراسيتين إضافيتين) ليكون مستواه مساويا لنظيره في كوريا. ويحتاج الطالب الذي عمره 15 سنة في المغرب إلى 56 شهرا (أكثر من أربع سنوات دراسية إضافية) ليكون مستواه مساويا لنظيره في سنغافورة. هذه نتائج صادمة...

...

الأسئلة المهمة الآن:

- كيف يمكننا تحسين الأداء الحالي للنظام التعليمي؟
- ما القضايا الكبرى التي ينبغي التركيز عليها؟
- ما الخطأ الذي لم ننتبه له؟

أين يكمن الحل؟

نحتاج إلى خطوتين رئيسيتين:

1. تشخيص السبب الرئيس لهذه المشكلة
2. تحديد الحل أو العلاج المناسب لها

تشخيص المشكلة



تؤكد جميع المؤشرات المستخلصة من الأبحاث والدراسات في مختلف المؤسسات التربوية في جميع أنحاء العالم، على أن العامل الأكثر أهمية في تعليم الطلاب في المدارس هو جودة المعلمين، وأن جودة النظام التعليمي لا يمكن أن تتجاوز جودة الأشخاص الذين يدرسون فيه. أي أن التحصيل التربوي يعتمد على ما يفعله المعلم في الفصل.

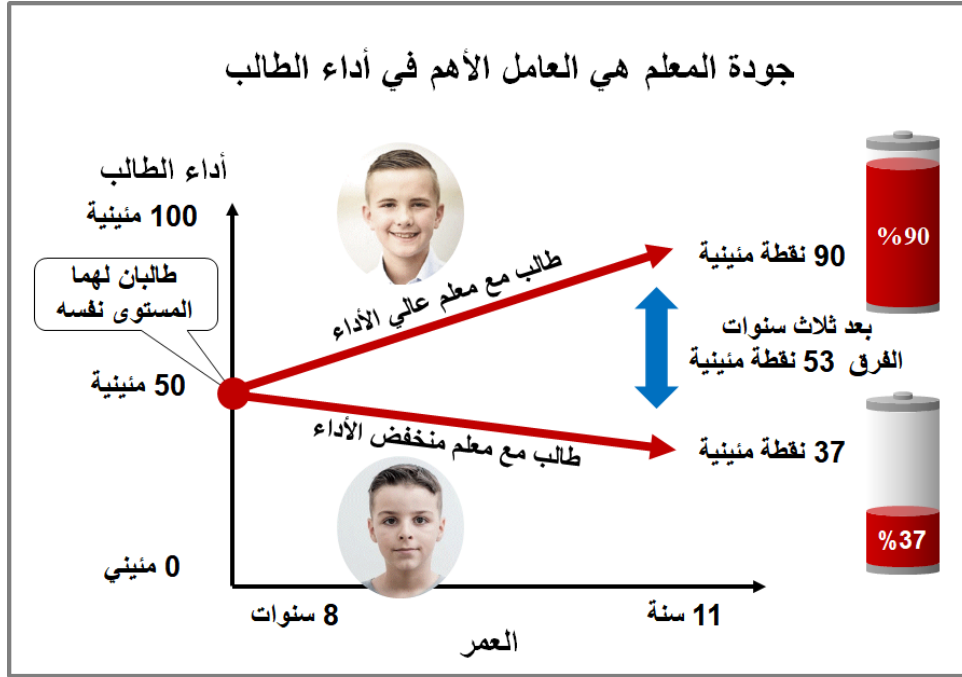
كما أثبتت البحوث والدراسات، كما يخبرنا البروفيسور ديLAN وليام، الخبير التربوي في جامعة لندن، ما يلي:



شكل 1

يتعلم الطالب في شهرين من أفضل المعلمين مقابل ما يتعلمه في ثمانية أشهر من أضعف المعلمين

- يتعلم الطالب من أفضل المعلمين فعالية، ضعف ما يتعلمه من المعلمين متوسطي الفعالية
 - يتعلم الطالب من أقل المعلمين فعالية، نصف ما يتعلمه من متوسطي الفعالية
 - هناك فرق مقداره أربعة أضعاف في سرعة التعلم بين أفضل المعلمين فعالية وأقلهم فعالية
- يعني يتعلم الطالب في شهرين من أفضل المعلمين مقابل ما يتعلمه في ثمانية أشهر من أضعف المعلمين. أظهر البحث الذي أجراه ساندرز وريفرز (Sanders & Rivers, 1996) أن المعلمين ذوي الجودة العالية يحدثون فرقا في نتائج تعلم الطلاب. وقاموا بتحديد المعلمين وتصنيفهم على أنهم المعلمون الأكثر فعالية، أي أعلى 20%، والمعلمين الأقل فعالية، أي أدنى 20%. وقد أجريا تقييمات ذات قيمة مضافة لمقارنة تقدم الطلاب المعيّنين للمعلمين الأكثر والأقل فعالية على مدى ثلاث سنوات. وأظهرت نتائج دراستهم أن الطلاب الذين يدرسون على يد المعلمين الأكثر فعالية حصلوا على نسبة 83 في المائة في الرياضيات، في حين أن الطلاب الذين يدرسون على يد المعلمين الأقل فعالية حصلوا على نسبة 29 في المائة (الشكل 2). يشير هذا إلى وجود اختلاف كبير في نتائج تعلم الطلاب استنادا إلى جودة المعلم.



Source: Sanders, W. L., Rivers, J. C. (1996). *Cumulative and Residual Effects of Teachers on Future Student Academic Achievement*. University of Tennessee Value-Added Research and Assessment Center

الشكل 2. تأثير جودة المعلم

مقتبس من ساندرز و ريفرز (Sanders & Rivers, 1996). التأثيرات التراكمية والمتبقية للمعلمين على التحصيل الأكاديمي للطلاب المستقبليين. الولايات المتحدة الأمريكية: مركز أبحاث وتقييم القيمة المضافة بجامعة تينيسي

مشكلة تدريب المعلمين

الحل، كما يبدو ظاهرياً، هو الاستثمار في إعداد المعلم وتطويره مهنيًا، أي: تدريب المعلمين. وبناء على القناعة الراسخة والحقيقة الثابتة من أن المعلم هو مفتاح الإصلاح لأي نظام تعليمي، فقد بدأ الكثير من الجهات المعنية إلى مبادرات ومشاريع لتدريب المعلمين وتأهيلهم عن طريق برامج ودورات تدريبية للمعلمين. لذلك تنفق المدارس، والجهات المعنية، في جميع أنحاء العالم، مئات الملايين من الدولارات سنوياً على تدريب المعلمين بطرق واساليب لم تتغير كثيراً منذ عقود. ولكن تبين أن هناك مشكلة في تدريب المعلمين ...

حيث يؤكد الخبراء والباحثون إنه ليس في تدريب المعلمين، بالطرق المعروفة، أي فائدة! ويؤكد هؤلاء الخبراء والباحثون: أن مئات الملايين من الدولارات تنفق سنوياً على تدريب المعلمين ليس فيها أي فائدة، بل تذهب هدراً... وأنه لم يكن هناك شيء أكثر مضيعة وإهداراً للمال والوقت من ذلك. بل يذهب البعض إلى أن هذا الواقع، يمثل أكبر فضيحة في التعليم! يقول أندي نويل (خبير تربوي): «تنفق المدارس، والجهات المعنية، في جميع أنحاء العالم مئات الملايين من الدولارات سنوياً على تدريب المعلمين بطرق واساليب لم تتغير كثيراً منذ عقود. ويمثل هذا الواقع، أكبر فضيحة في التعليم» Andy (Newell, 2016).

كما يلخص البروفسور مايكل فولان، عميد معهد الدراسات التربوية في كندا، هذه المشكلة بقوله: «لم يكن هناك شيء أكثر مضيعة وإهدارا للمال والوقت مثل آلاف الدورات التدريبية للمعلمين التي لم تؤدي إلى تغيير ذي أهمية في الممارسة عند عودة المعلمين إلى فصولهم الدراسية» (Fullan & Stiegelbauer, 1991).

ولكن الدليل الأهم على فشل تدريب المعلمين هو عدم تحسن الأداء التعليمي عبر السنين، بالرغم من الإنفاق المتزايد على قطاع التعليم...

يعود الفشل في برامج تدريب المعلمين بالطرق التقليدية إلى ثلاثة أسباب:

- وجود مفاهيم ومعتقدات شائعة غير صحيحة حول التعليم وطرقه واستراتيجياته
- استخدام استراتيجيات وطرق وإجراءات غير فعالة في التعليم
- استخدام استراتيجيات وإجراءات ذات تكلفة عالية وفعاليتها قليلة في الوقت نفسه

السؤال الآن: كيف يجب أن يكون تدريب المعلم وتطويره مهنيًا؟ وماذا يجب على المعلم أن يفعله في الفصل؟ وإذا كانت هناك آلاف البرامج التدريبية للمعلمين غير فعالة وغير مجدية فما الحل لهذه المشكلة؟

هذا هو بالضبط ما وجدنا الإجابة عنه ...

مفهوم «جودة» التعليم

وجدنا أن مشكلة التعليم تتلخص في التعريف الشائع لمفهوم «جودة» التعليم، أو «جودة» المعلم. والحل هو في تصحيح هذا المفهوم. فأغلب المعنيين يتحدثون عن فعالية التعليم أو فعالية المعلم، ولكن القليل جدا من يتحدث عن كفاءة التعليم أو كفاءة المعلم.

المفتاح هو كفاءة التعليم أو كفاءة المعلم

(ملحوظة: الصواب لغويا هو "كفاية"، ولكننا سنستعمل "كفاءة" لشيوع استعمالها).

كفاءة التعليم هي مقياس لمقدار الموارد المطلوبة لتحقيق الأهداف.

يمكن أن تحقق كفاءة التعليم الذكية الأهداف نفسها باستخدام موارد أقل. كلما زادت كفاءة التعليم، زاد توفير المال والمواد والوقت في تحقيق متطلبات التعليم على أفضل وجه.

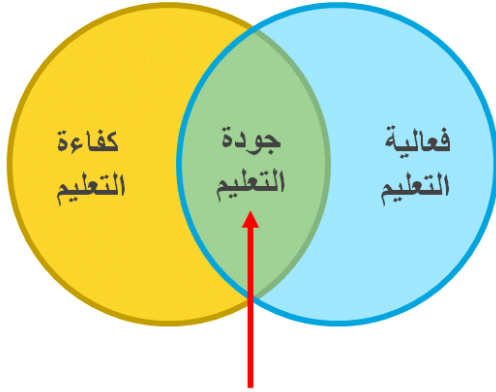
ما الفرق بين الفعالية Effectiveness والكفاءة Efficiency؟

فعالية التعليم تعني:

- تدريس المقرر المحدد
- حسب المواصفات المحددة

كفاءة التعليم تعني:

- إكمال المقرر بأقل وقت
- وبأقل تكلفة



يطلق عليها أيضا «الإنتاجية»

أداء المعلم هو حصيلة فعاليته وكفاءته، أي: إكمال المقرر ونجاح الطلاب، بأقل وقت وبأقل تكلفة.

نعرف جودة المعلم = إنتاجية المعلم = أداء المعلم

الشكل التالي يبين هذه المفاهيم ويعرفها بشكل واضح، أي: الأداء، والفعالية، والكفاءة

تعريف جودة التعليم

لسنوات عديدة، كانت فكرة "جودة المعلم" موضوعا رئيسا للمناقشة في الأبحاث والسياسات التربوية. وعلى الرغم من استخدام المصطلح على نطاق واسع، إلا أنه لا توجد فكرة واضحة وموحدة عما تعنيه "جودة المعلم" أو كيفية تنفيذها (Bradford, Pendergast & Grootenboer, 2021; Scholes et al. 2017). من الواضح أن التدريس الجيد مهم لأداء الطلاب؛ ولكن ليس من الواضح ما الذي يجعل المعلم جيدا (Meroni, Vera-Toscano and Costa, 2015). وقد استخدم العديد من الأساليب لتحديد وتقييم جودة المعلمين. أشارت لورا جو (Goe, 2007) إلى أن هناك إجماعا واسعا على أن جودة المعلم لها تأثير على أداء الطلاب، ولكن لا يوجد حتى الآن اتفاق حول ما يشكل جودة المعلم. وقد ثبت أنه من الصعب تحديد ذلك نظرا لأن تعريف جودة المعلم يختلف وفقا للسياق (Goe, 2007).

أداء النظام التعليمي

تظهر نتائج استطلاع برنامج تقييم الطلاب الدوليين بيزا (PISA)، كما ورد في تقرير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD, 2010, 2016, 2021) أن هناك تباينات ملحوظة في الإنجازات التعليمية للطلاب من مختلف البلدان. كانت نتائج بيزا في بعض البلدان غير مرضية للغاية، مما يكشف أن أداء الأطفال الذين تبلغ أعمارهم 15 عاما أقل بكثير مقارنة بأداء أقرانهم في البلدان الأخرى، وفي بعض الحالات يعادل هذا الفرق في الأداء عدة سنوات من التعليم، وذلك على الرغم من أن الجهات المعنية بذلت جهودا كبيرة واستثمارات كبيرة في التعليم. وبينما فشلت بعض الدول في تلبية التوقعات، تفوقت دول أخرى من حيث أداء الطلاب. ومن المتفق عليه على نطاق واسع أن للمعلمين أهمية قصوى من حيث التأثير على النجاح التعليمي للطلاب وأفاقهم المستقبلية (Chetty et al. 2014; Rivkin et al. 2005; Rockoff, 2004).

توجد مجموعة كبيرة من البحوث التي تدرس العلاقة بين جودة المعلم وإنجاز الطلاب. وتم تحديد جودة المعلم لتكون أهم عامل في نجاح الطلاب (Koedel & Betts, 2007). من الواضح أن جودة

المعلمين تلعب الدور الأكبر في زيادة تحصيل الطلاب، وهناك إجماع على أنه لا يوجد نظام تعليمي يمكن أن يتجاوز جودة معلميه (Barber & Mourshed, 2007). وقد خلص رايت و وهورن و وساندرز (Wright, Horn, & Sanders, 1997) أيضا إلى أن تأثير المعلم هو العامل الغالب في تحديد مكاسب تعلم الطلاب وأن المتغيرات الأخرى، مثل تنوع الطلاب وحجم الفصل، لها تأثير ضئيل. هناك جهود دولية كبيرة لتحسين نتائج تعلم الطلاب. وقد ركزت البحوث والسياسات على فعالية المعلم كوسيلة لتحقيق هذا الهدف لأن للمعلمين القدرة على إحداث تأثير إيجابي على طلابهم. ولهذا السبب من الضروري فهم العوامل التي تؤدي إلى فعالية المعلم. وبينما تُستخدم المؤهلات بشكل شائع لقياس جودة المعلم، فقد أظهرت الأبحاث أن هذه المؤهلات لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأداء الطلاب (Koedel & Betts, 2007). ويرى هانوشيك (Hanushek, 2002) إنه إذا كان الهدف هو تعزيز أداء الطلاب، فيجب أن يكون أداء الطلاب هو الموجه للسياسة التربوية.

لسنوات عديدة، أثبتت الأبحاث أن المعلمين يتمتعون بمستويات متفاوتة من الجودة وأن المقاييس التقليدية مثل المؤهلات والخبرة وبيانات الاعتماد لا تقيم هذه الجودة بدقة. وخلص البحث إلى أن هناك تبايناً كبيراً في الجودة بين المعلمين وأن هذه الاختلافات لا يمكن تحديدها من خلال مقاييس مشتركة مثل الشهادات أو الخبرة. وقد أدى هذا التناقض بين الطلب والعرض من المعلمين، بسبب عدم القدرة على تقييم الجودة بدقة، إلى انخفاض جودة المعلمين الذين يتم تعيينهم (Hanushek, 2002). وفقاً لهانوشيك (Hanushek, 1992)، يمكن للمدرس ذي المهارات العالية أن يجعل طلابه يتقدمون لمدة عام إضافي، بينما يتمكن المعلم الأقل مهارة من تدريس ما يعادل نصف عام فقط. لم تكن اللوائح الحكومية مثل حجم الفصل ومتطلبات الاعتماد فعالة في تعزيز أداء الطلاب، ولكن بدلاً من ذلك كان لها عواقب غير مقصودة مثل زيادة الحاجة إلى المعلمين والحد من عدد المرشحين المؤهلين جيداً. يمكن تحديد جودة المعلمين من خلال قياس تأثيرهم على تعلم الطلاب. على الرغم من وجود قدر كبير من الأبحاث المكرسة لتقييم فعالية المعلم (Bill & Melinda Gates Foundation, 2012; Chetty et al., 2014)، فقد كان هناك القليل نسبياً من التحقيق في كفاءة المعلم كوسيلة لتحسين النتائج التعليمية. ولضمان الاعتراف بأولئك الذين يؤدون أداءً جيداً ولتحسين النتائج التعليمية، يجب تطوير وتنفيذ نموذج جديد لأداء التدريس في البلدان النامية. ولكي يكون هذا النموذج فعالاً، يجب تفعيل المتغيرات، مما يعني أن هذه المتغيرات بحاجة إلى تحديد وقياس واضحين. وسيؤدي ذلك إلى فهم شامل للفكرة والتأكد من تطبيقها بشكل صحيح.

يعد تحديد جودة التدريس وقياسها عملية معقدة ومستمرة، حيث يتضمن ذلك عوامل متعددة، مثل استراتيجيات المعلم والأساليب التعليمية، وبيئة الفصل الدراسي، وجودة نتائج تعلم الطالب. لتحديد جودة التدريس، من المهم مراعاة قدرة المعلم على خلق بيئة تعليمية إيجابية، وجذب انتباه الدارسين، والتقييم الفعال لتعلم الطلاب. يجب أن يكون المعلم عالي الجودة قادراً على تهيئة مناخ الفصل الدراسي الذي يسمح بالمشاركة النشطة للطلاب وتعزيز التفكير النقدي لهم. يجب أن يكون لدى المعلمين أيضاً مجموعة متنوعة من الاستراتيجيات التعليمية تحت تصرفهم، مثل طرق التدريس المتنوعة والتقييمات التكوينية، للتأكد من أن جميع الطلاب قادرين على التعلم بالسرعة التي تناسبهم.

فعالية المعلم وكفاءة التدريس

تمت دراسة مفهوم فعالية المعلم على نطاق واسع، مع مجموعة متنوعة من التعريفات لهذا المصطلح. ويرى جو (Goe, 2007) أن فعالية المعلم هي مؤشر لنمو تعلم الطلاب، وعادة ما يتم تقييمها من خلال

اختبارات موحدة. من ناحية أخرى، يعرف جوب (Job, 2017) فعالية المعلم بأنها قدرة المعلم على استخدام الاستراتيجيات، والتواصل مع الطلاب، ومجموعة من المواقف التي تؤدي إلى تعلم الطلاب وإنجازهم. ومن المهم ملاحظة الفرق بين الكفاءة Efficiency والفعالية Effectiveness: الكفاءة تعني إنتاج المخرجات بأقل مستوى من الموارد، في حين تركز الفعالية على جودة المخرجات. لقد أصبح التقدم في الأبحاث ممكناً بفضل توفر مجموعات البيانات مثل TIMMS و PIRLS و PISA، والتي تتيح مقارنة أداء الأنظمة التعليمية في البلدان المختلفة بناءً على أداء الطلاب.

تعريف جودة التدريس

هناك ارتباك كبير بين المعلمين والتربويين والباحثين حول المصطلحات المستخدمة عند مناقشة الجودة والفعالية والكفاءة في التدريس. هل هناك تعريفات واضحة لكل من هذه المصطلحات؟ تشير جودة المعلم إلى خصائص المعلم وقدراته، مثل مستوى تعليمه وشهادته وخبرته. أما جودة التدريس فهي مصطلح أوسع يشير إلى فعالية المعلم في التدريس، والموارد والأدوات التي يستخدمها، وجودة تفاعله مع الطلاب.

إدارة عمليات التدريس

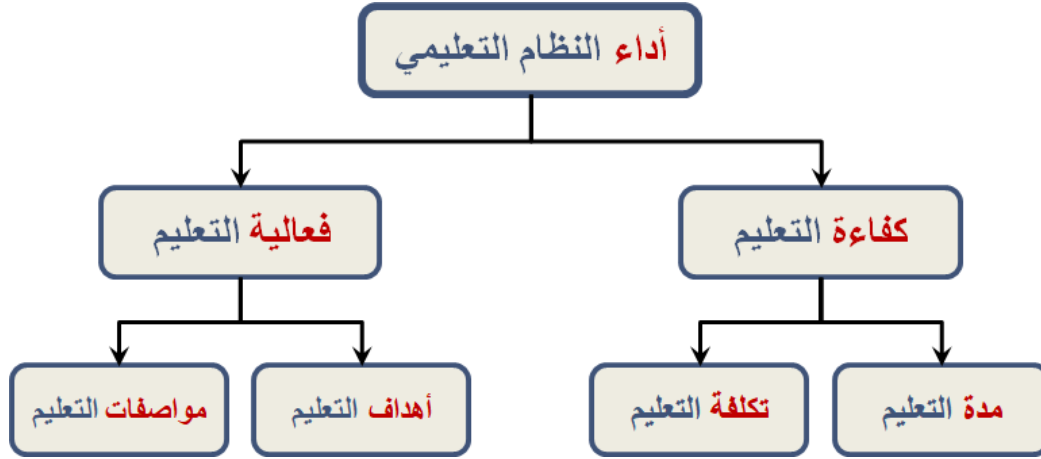
تهتم إدارة العمليات بالأهداف والغايات والاستراتيجيات في النظام، وتستخدم التغذية الراجعة لتحسين الأداء. للتأكد من أن النظام يعمل بفعالية وكفاءة، من المهم إنشاء مقاييس ذات معنى. وتنقسم هذه المقاييس إلى أربع فئات، وهي معايير التدريس، وأهداف التدريس، ووقت التدريس، وتكاليف التدريس. الأولان هما مقاييس الفعالية، والأخيران هما مقاييس الكفاءة.

معايير التدريس (TS). الامتثال للمعايير يعني اتباع القواعد واللوائح المعمول بها التي وضعتها منظمة أو جهة أو سلطة معينة. يمكن أن تشمل هذه المعايير جوانب عديدة تبدأ بلوائح السلامة وتنتهي بمعايير الأداء. ومن خلال الامتثال للمعايير، يمكن للمؤسسات التأكد من أن منتجاتها وخدماتها ذات جودة معينة، وأنها تلبي متطلبات المنظمة أو الصناعة.

أهداف التدريس (TO). وتعني تحقيق الأهداف والغايات التي تم تحديدها للتدريس، والتأكد من أن الأهداف والغايات قد تم تحقيقها بطريقة كفوءة وفعالة، وأن الموارد المتاحة تستخدم بالطريقة الأكثر فعالية. يجب أن تكون الأهداف قابلة للقياس والتحقيق، وينبغي مراجعتها بانتظام لضمان إحراز التقدم.

وقت التدريس (TT). وهو مقدار الوقت المستغرق لإكمال عملية معينة أو إنتاج منتج معين. يرتبط وقت العملية عادةً بالموارد المستهلكة في إكمال المهمة. تركز العديد من المنظمات على تقليل وقت المعالجة من أجل تقليل التكاليف. ومن خلال تقليل مقدار الوقت المستغرق لإكمال العملية، يمكن أيضاً تقليل تكلفة العملية المرتبطة بها.

تكلفة التدريس (TC). تكلفة العملية هي مقياس للموارد المستهلكة في إنتاج المنتجات والخدمات المطلوبة، مثل المواد والعمالة واستخدام المكان والمرافق. وتعد هذه تكاليف متغيرة، حيث يتم إنفاقها في عملية الإنتاج.



الشكل 3. جودة التدريس وفعاليتها وكفاءته

ما الذي يجعل التدريس رائعاً؟ وفقاً للتعريفات السابقة يمكن تعريف جودة التدريس وفعالية التدريس وكفاءة التدريس على النحو التالي:

- جودة التدريس هي التدريس الذي يتسم بالفعالية والكفاءة.
- فعالية التدريس هي التدريس الذي يتوافق مع المعايير ويحقق الأهداف، أي القيام بالأشياء الصحيحة.
- كفاءة التدريس هي الوقت والتكلفة لتحقيق الأهداف المرجوة. كلما قل الوقت الذي تستغرقه العملية لإكمال المهمة، انخفضت التكلفة، أي القيام بالأشياء بشكل صحيح.

مقاييس الأداء

يمكن قياس جودة التدريس من خلال تقييم هذه المكونات الأربعة الموضحة في الشكل. ويجب تصميم برنامج تطوير المعلم حول هذه الأبعاد الأربعة.

يذهب الطلاب إلى المدرسة متوقعين اكتساب المعرفة من معلمهم. ويبدل قادة التعليم والباحثون والمهنيون من مختلف البلدان الكثير من الجهد لتحسين نتائج الطلاب من خلال التركيز على المعلمين وطرق التدريس الخاصة بهم. أشار ديLAN وويليام (Wiliam, 2006) إلى أن التباين على مستوى الفصل الدراسي كان أكبر بأربع مرات منه على مستوى المدرسة. وقال: "لا يوجد في الواقع شيء اسمه مدرسة جيدة، ولكن يوجد شيء اسمه مدرسة بها معلمون جيّدون" (ويليام، 2006). ووجد بلوميكي وأولسن وسوهل (Blömeke, Olsen, and Suhl (2016) أن جودة التدريس تتنبأ بجودة التعليم، وبالتالي إنجاز الطلاب. وخلص رايت وهورن وساندرز (1997) إلى أن فعالية المعلم هي العامل الأكثر تأثيراً على تحصيل الطلاب، في حين أن العوامل الأخرى لها تأثير ضئيل نسبياً.